رؤوس يانعة

علي خيون ❖

في الجانب القديم من المدينة وجدتُ سكنًا رخيصًا، غرفةً مزدوجةً في فندق «البصرة،» وهو مبنًى آيلٌ إلى السقوط، شُيّد في زمن الاستعمار على أيدي عمّالٍ هنود، وبقي شاهدًا على الفقر الكافر والنفوس الحائرة القلقة.

المكان السيّئ، الذي قادني إليه ضيقُ ذات اليد، صار يُشْعرني بالكآبة ويَغْمرني بإحساسٍ طاغٍ بأنّ حياتي نفسَها آيلةٌ إلى الزوال. ويزداد هذا الإحساسُ ضراوةً حين تمرّ طائراتٌ أجنبيّة فوقه مباشرةً، في مهمّاتٍ قتاليّةٍ عاجلة، فيرتجّ للحظات، ثم يَسْكن سكونَ الموت.

علمتُ أنّ مَنْ يشاطرني الغرفةَ رجلٌ يدعى جبر حَيْران. ولقد ضحكتُ كثيرًا مع نفسي، إذ إنّ اسمي شبيهٌ باسمه مع تغيير طفيف: حَيْران جبر؛ وهو اسمٌ كثيرُ التداول في مدينةٍ جنوبيّةٍ بسيطةٍ وطيّبة. لكنّ الاستغراب لم يبارحْني، ونَهَش الفضولُ داخلي لمعرفة شريكي في الغرفة العتيقةِ المشقّقةِ الجدران.

سألتُ صاحبَ الفندق فلم يجب. كان طوالَ الوقت يزمّ شفتيْه على قصبة نارجيلةٍ متّقدةٍ ليلَ نهار. لا يحبّ الكلامَ، ولا يغادر مكانَه إلاّ ليتبوّل. وكلّما سألتُه بإلحاحٍ عن جاري، أخلى فمَه لثانيةٍ واحدةٍ عمّا يشغله وسألني بإعجابٍ واستغراب:

ـ الأستاذ حيْران؟

ويترك الإجابةَ معاودًا التدخينَ، وعيناه تراقبان الجمرَ المتّقد. حاولتُ أن اعتمدَ على نفسي في معرفته، وقرّرتُ أن أباغتَه بسيلٍ من الأسئلة بمجرّد رؤيته. لكنني، بعد مضيّ ثلاثة أيام، لم أفلحْ في رؤيته؛ فلقد كان كلانا يأوي إلى الغرفة في مواقيتَ تتعارض مع الآخر.

لم يبق لديّ من وسيلةٍ متاحةٍ سوى سريره. الصحف تتكدّس هنا وهناك كأنه يبحث فيها عن أمرٍ ما. حسبتُ أثمانَها فأدركتُ أنها تكلّفه الكثير. أغلبُها مفتوحٌ على صفحات الإعلان، كأنه يبحث عن وثيقةٍ ضائعة. وكنتُ أستغرقُ في قراءتها لساعات، وعلمتُ أنّ هناك أشياء كثيرةً تحْدث من دون أن انتبهَ إليها، فكأنّ الرجل صار مصدرَ معرفةٍ لي.

❖ ❖ ❖

ذات مرةٍ شعرتُ بالفرح، إذ على الرغم من برودة الليل نسي معطفَه. سارعتُ إلى تفتيش جيوبه العميقة الطويلة، فعثرتُ على رقعة شطرنج صغيرةٍ وجميلةٍ مع أحجارها، لا ينقصها سوى الوزير. ووجدتُ مظروفًا مغلقًا على رسالةٍ تردّدتُ في فضّه. كان المظروف معطّرًا كأنه أُعدّ لامرأةٍ رقيقةِ المشاعر. ولكي أثيرَ اهتمامَه فقد أخرجتُ الرسالةَ من الجيب ووضعتُها تحت وسادته. هنا عثرتُ على الوزير، فأعدتُه إلى مكانه في الرقعة. لمحتُ، وأنا أنحني، حقيبةً دبلوماسيّةً مخبّأةً خلف حافّة السرير. كانت مفتوحة، وفي داخلها مخطوط كبير بعنوان **رؤوس يانعة**. تحسّستُ عنقي وتوجّستُ منها خيفةً، فدسستُها في الحقيبة كأنها سلاحٌ محظورُ الاستخدام.

في اليوم التالي زالت عني وساوسي، فأخرجتُ المخطوطةَ من الحقيبة وقرأتُها، ثم أعدتُها، ونزلتُ مسرعًا. ابتعتُ قلمًا أحمر، وسهرتُ أصحّح الأخطاءَ اللغويّة. كان الرجل قد وضع، بعد المقدّمة، بيتًا من الشعر، كتب صدرَه ونسي العجز، فقررتُ أن أتمّه، ولكنني نسيتُ قائلَه. كان الصدرُ يقول: «وقلتُ له لا تبكِ عينُكَ إنّما» وقدّرتُ أنه سيكون ممتنّاً منّي حين أتمُّ ما بدأه، فكتبتُ متمّمًا: «نعاودُ ملْكًا أو نموت فنُعْذَرا.» لكنه لم ينتبْه إلى كلّ ما فعلتُ، سوى أنه أعاد الوزيرَ إلى مكانه خارج الرقعة، وأقفل الحقيبةَ، وترك كتابًا فلسفيّاً، ومخطوطةً لم تحقّقْ للفارابي عنوانُها: **رسالةٌ في السياسة**. قلّبتُ الكتابَ فوجدتُ تعليقًا بالقلم الرصاص: «ما أعظَم هذا الكتاب، لكنْ أين الوقت؟!»

❖ ـ روائيّ وقاصّ من العراق. صدرتْ له عن دار الآداب مؤخّرًا روايةٌ بعنوان: **ما طاب من النساء**.

سهرتُ الليلَ كلَّه في مطالعة الكتاب وفي تلخيصه. وجلبتُ مكبّرةً وشرعتُ في تحقيق المخطوطة. ثم وضعتُ خلاصةً لأفكار الفارابي في خمس نقاط، هي: معرفةُ السياسيّ لربّه، ومعرفتُه لرؤسائه، وتعاملُه مع نظرائه، ومعاملتُه لمن هم دونه، وفي سياسة السياسيّ لنفسه. ووضعتُ في المقدّمة شكرًا لنفسي لمراجعتي المخطوطةَ، فوقعتُ في حيرةٍ شديدة، إذ ظهر كأنّ المؤلِّف يشكر نفسَه لتشابه الاسمين. عدتُ فشطبتُ السطرَ كلَّه.

وإمعانًا في إثارة الرجل الغريب، صحّحتُ له الكلمات المعكوسةَ في حلول الكلمات المتقاطعة التي أخطأ فيها كثيرًا. بدا لي شاردَ الذهن، واستغربتُ إذ لم أجد الوزيرَ. ثم عثرتُ على صفحة من مجلةٍ شهريّةٍ اقتطع منها لعبةً ينبغي فيها قتلُ الملك بنقلتين، فرسمتُ له كيفيّةَ إنهاء اللعبة بنقلةٍ واحدة، إذ كنتُ بارعًا في الشطرنج. وبسبب الشعور بالعزلة والإحباط، التقطتُ المظروفَ، وفتحتُ الرسالةَ المعطّرة. تبسّمتُ؛ إذ بدا ساذجًا وهو يرسم قلبًا مصابًا بسهم، وعباراتٍ بدا فيها متيّمًا بدائيّاً في الحبّ. فقد ذكر للمرأة أنها حرّة مثل أيّ دولة في العالم الثالث تتقلّب من نظامٍ إلى نظام بفعل انقلاباتٍ وثوراتٍ لا تنتهي. وشعرتُ أنه يرتكب خطأً قد يُفْقده المرأةَ التي يحبّ، وقدّرتُ أنه أحمق، لذا مزّقتُ الرسالة وكتبتُ أخرى بديلةً وضحّتُ فيها للمرأة أنها حرّة في أن ترتبط بمن تجده مناسبًا لها مادامت عاقلةً راشدة، ولكنه يأمل أن تقبله لأنه يحبّها. وأسهبتُ في شرح مسؤوليّة الزواج والحقوق المتبادلة. وبيّنتُ أنني لستُ أنانيّاً؛ فكلُّ ما أريده لها هو أن تكون سيّدةً لها وزنُها في المجتمع، وأمّاً فاضلة تُعنى بأولادها. واستبعدتُ فكرة العطر عن رسالةٍ جادّة، ووضعتُ الرسالةَ في مغلّفٍ جديد، وأعدتُها إلى جانب الوزير الذي لم أفهمْ مغزى إخفائه خلافًا للقِطَع الأخرى.

❖ ❖ ❖

بعد أسبوع كدتُ أنهي مهمّتي في المدينة وأغادر عائدًا؛ فقد يئستُ من لقائه. عاودتُ سؤالَ صاحب الفندق، فقال وسط الدخان: «الأستاذ حيران في الغرفة.» صعدتُ مسرعًا، واتضح لي أنّ الأمر اختلط على الرجل الغبيّ صاحبِ الفندق، فلم يعد يفرّق بيني وبين الآخر، إذ لم يكن من أحدٍ هناك. لكنني بوغتُّ بوجود مفكّرةٍ على السرير. التقطتُها واندفعتُ أفتّش في الحمّام، وعلى السلّم، وفي الممرّ المظلم، فلم أجد أحدًا.

جلستُ ألهثُ وأنا أطالع المفكّرة، فهالني ما كُتب من سطورٍ غامضةٍ قصيرةٍ لا توحي بشيء، أو أنها توحي - إنْ أريدَ التكلفُ في تفسيرها - برجلٍ عصيّ على الفهم، لا يعرف ما يريد، فكتب: «أعيشُ مع رجلٍ مريضٍ بالفصام. هو واهمٌ. أوهامُه في جانب، ودنياه في جانبٍ آخر. والمشكلة أنه لا يدرك دنياه، ولا يعي أوهامه.»

من يقصد؟

وفي صفحةٍ أخرى كتب: «المشكلة التي أريد التصدّي لها ليست العلاقةَ بين الله والإنسان، وإنما العلاقةَ بين الإنسان والإنسان.»

في اليوم الأخير، وقبل أن أغادرَ بساعة، كتبتُ رسالةً وتركتُها على السرير. وفيها حاولتُ أن أبيّن لصاحبي أنه مبعثرٌ ولا يدري ما فعل في الحياة، وأنّ الحياة ليست عبثًا، وأنّ عليه أن يكون واعيًا ومنظّمًا، وأنّ ما كتبه في المخطوطة (التي قمتُ بترتيبها وتنظيم هوامشها) إنما يدلّ على استهانةٍ بالحياة، وأنّ عليه أن يكون سياسيّاً مع المرأة التي يحبّ. وأوضحتُ له أنني، مثلَه، درستُ السياسة، فعلمتُ أنها فنُّ الممكنات. وأفهمتُه أنّ رسالة الفارابي، على أهميّتها التاريخيّة، تبدو قاصرةً إذا ما قورنتْ بمفهوم السياسة في عالم اليوم المعقّد. وقلت له: «إنّ على السياسيّ أن تكون له معرفةٌ بأسبابِ تكوّنِ الحضارات وانهيارها، وخبرةٌ، وأخلاقٌ عاليةٌ تجعله رمزًا صادقًا ومنقذًا حقيقيّاً.»

❖ ❖ ❖

ما إنْ حملتُ حقيبتي حتى سمعتُ طرقًا على الباب ورأيتُ البابَ يُفتح عنوةً، فيندفع رجلٌ يلفّ وجهَه اتّقاءَ البرد أو اتقاءَ أن يعرفه الناس. وقف قبالتي وقال لاهثًا:

ـ هيّا يا أستاذ حيران، بسرعة، عليك أن تغادر فورًا. البقاء خطر عليك!

تطلّعتُ إلى الرجل بذهول، وتيقّنتُ من أنّ العجلة أوقعته في الخطإ، فعذرتُه من أعماقي: ذلك أنّ جاري يَحْمل اسمي ذاتَه مع تغيير طفيف، والحجرة هي عينها ما عدا أوقات العمل أو الحضور والغياب الذي منعني من لقائه. قلت مبتسمًا:

ـ لستُ أنا بالطبع.

سارع الرجلُ إلى حمل حاجاتي في الحقيبة وقال متجاهلاً ملاحظتي:

ـ لم يعد لديك وقتٌ تضيّعه في ما لا يفيد. أنتَ في موقف حرج!

بقيتُ مسمّرًا في مكاني، وقد عقدتِ المفاجأةُ لساني، بينما انتهى هو مِنْ كلّ شيء بسرعة وسحبني من كفّي وأنا ألقي نظرةً على حقيبة جاري المخبّأة خلف السرير:

ـ والأجور؟

ـ دفعتُ الأجرةَ ومحوتُ اسمَك بالحبر الأبيض. هيّا أرجوك!

تبعتُه صاغرًا مرتبكًا على أمل أن أبيّن له، في مكانٍ آمن، ما وقع فيه من التباس واضح. جعل يهرول وأنا أتبعه بالسرعة ذاتها، وهبط بنا سلالمَ مظلمة. كنتُ ألهث، وخشيتُ أن تعود إليّ نوبةُ الربو التي شُفيتُ منها. تعثّرتُ أكثر من مرة. كان الممرّ طويلاً ولا أمل في رؤية نهايته. هبط قلبي إلى قدميّ حين سمعتُ صوتًا غاضبًا، ثم تبيّن أنه يحذّرنا:

ـ إذا لم تتوقّفا فسأُطلق النارَ. أنتما في مدى النار!

توقّفتُ، لكنه سحبني بقوة وقال بإصرار:

ـ متْ وأنت تركض. إيّاك أن تقف!

بدأ الضوءُ يلوح في نهاية الممرّ. لكنّ المشكلة أنّ الرصاص انطلق خلف ظهورنا، وصار الأمرُ كلُّه معادلةً صعبةً ومعقّدة: أن نبلغ الضوءَ، أو يخترقَ الرصاصُ ظهري... مع أنني لا أعرف مصدرهَ، ولا لماذا ينطلق نحونا أو نحوي أنا ـ حَيْران جبر ـ تحديدًا!

بغداد